# المعجب في تلخيص أخبار المغرب

## عبد الواحد بن علي المراكشي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مفني الأمم وباعث الرمم وواهب الحكم ذي البقاء والقدم الذي لا مطمع في إدراكه لثواقب الأذهان ونوافذ الهمم أحمده على ما علم وألهم وسوغ وأنعم وصلى الله على كاشف الظلم ورافع التهم وموضح الطريق الأمم المخصوص بجوامع الكلم والمبتعث إلى جميع العرب والعجم وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم وسلم عليه وعليهم وشرف وعظم.
وبعد - أيها السيد الذي توالت علي نعمه وأخذ بضبعي من حضيضي الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه وقضى إحسانه إلي ومحبته التي جلبت عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه فإنك سألتني - بوأك الله أعلى الرتب كما عمر بك أندية الأدب ومنحك من سعادتي الدنيا والآخرة أوفر القمع كما جمع لك فضيلتي التدبير والقلم - إملاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا - وهو سنة 621- وأن ينضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيته أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل؛ فلم أر بداً من إسعافك والمسارعة إلى ما فيه رضاك؛ إذ هي الغاية التي أجري إليها والبغية التي أثابر أبداً عليها ولوجوب طاعتك علي من وجوه يكثر تعدادها فاستخرت الله - عز وجل - فيما ندبتني إليه واستعنته واعتمدت في كل ذلك عليه فهو الموئل والملجأ وهو حسبنا ونعم الوكيل.
هذا مع أني أعتذر إلى مولانا - فسح الله في مدته - من تقصير إن وقع بثلاثة أوجه من الأعذار: فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العي على طباعه فمهما وقع في هذا الإملاء من فتور لفظ أو إخلال بسرد فهو خليق بذلك.
والوجه الثاني أنه لم يصحبني من كتب هذا الشأن شيء أعتمد عليه وأجعله مستنداً - كما جرت عادة المصنفين - وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إلي لأحد فيها تأليف أصلاً خلا أني سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعا والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت؛ وجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر وغموم تستغرق الفكر

فرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من التسامح والتغاضي لا زال مجده العالي يرفع الهمم ويعقد الذمم ويوصل النعم ويعمر ربوع الفضل والكرم.

## فصل في ذكر جزيرة الأندلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة 621 إذ هي كانت معتمد المغرب الأقصى والمعتبرة منه والمنظور إليها فيه وهي كانت كرسي المملكة ومقر التدبير وأم قرى تلك البلاد لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني فصارت إذ ذاك تبعاً لمراكش من بلاد العدوة ثم تغلب عليها المصامدة بعده فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا فأقول وبالله التوفيق: أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس وهو البحر الرومي مما يقابل طنجة في موضع يعرف بالزقاق سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً وهذا الخليج هو ملتقى البحرين - أعني بحر مانطس وبحر أقيانس - وحداها الشمالي والمغربي البحر الأعظم وهو بحر أقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة وحدها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين بحر الروم وهو مانطس والبحر الأعظم ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل وهو الحد الأصغر من حدود الأندلس وحداها الأكبران الجنوبي والشمالي مسافة كل واحد منهما نحو من ثلاثين مرحلة وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذي هو الحد المشرقي من الأندلس هو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسة من الأرض الكبيرة أرض الروم التي هي بلاد إفرنجة العظمى والأندلس آخر المعمور في المغرب لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر أقيانس الذي لا عمارة وراءه ومسافة ما بين طليطلة التي هي قريبة من وسط الأندلس ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة أذكرها في هذا الموضع إلا أن ذكرها سيرد فيما يأتي من تفصيل أخبار الأندلس تعرف ذلك بقول "أعادها الله للمسلمين فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين.

## ذكرفتح جزيرة الأندلس

ولمع من تفصيل أخبارها وسير ملوكها ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها:

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق: افتتح المسلمون جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة 92 من الهجرة وكان فتحها على يدي طارق قيل: ابن زياد وقيل ابن عمرو وكان والياً على طنجة مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان في أقصى المغرب بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق وبالمجاز رتبه فيها موسى بن نصير أمير القيروان وقيل أن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على العساكر وانصرف إلى أبيه لأمر عرض له فركب طارق البحر إلى

الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء منتهزاً لفرصة أمكنته وذلك أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم خطب إلى الملك الأعظم ابنته فأغضب ذلك الملك ونال منه وتوعده فلما بلغه ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد بلد الملك فبلغ طارقاً خلو تلك الجهة فهذه الفرصة التي انتهزها.
وقيل إن العلج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره وهو أن لذريق ملك الجزيرة - - لعنه الله - - كان له رسم يوجه إليه أعيان قواده وأمراء دولته ببناتهم فيربيهن عنده في قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه... فإذا بلغت الجارية منهن وحسن أدبها زوجها في قصره لمن يرى أنه كفء أبيها فوجه إليه صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء فرآها يوماً فأعجبته فدعاها فأبت عليه وقالت لا والله حتى تحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجني هذا بعد مشورة أبي! فغلبته نفسه واغتصبها على نفسها فكتبت إلى أبيها تعلمه بذلك فهذا كان السبب الذي بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتح فالله أعلم أي ذلك كان.
فأول موضع نزله - فيما يقال منها المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم .
ثم اختلف الأمر هنالك ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم وال ثم ولي عليها السمح بن مالك الخولاني قبل المائة واجتمع عليه الناس ثم ولي عليها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم وليها عنبسة بن سحيم الكلبي وعزل الغمر بن عبد الرحمن ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكي نحواً من العشر ومائة - وكان رجلاً صالحاً - ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهري ثم عقبة بن الحجاج فهلك عقبة بالأندلس ورد عبد الملك بن قطن ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك وشهد له بعض من كان معه ووقعت فتن من أجل ذلك وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء حتى أرسل إليهم والياً أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي فحسم مواد الفتن وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة وفي تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراءها وولاة الحروب فيها أيام بني أمية قبل ذهاب دولتهم في المشرق.

## ذكرمن دخل الأندلس من التابعين

وأنا ذاكر هاهنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط: فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري يروي عن أبي هريرة.
ومنهم حنش بن عبد الله الصنعاني يروي عن علي بن أبي طالب وفضالة بن عبيد.
ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي يروي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب.
ومنهم يزيد بن قاسط وقيل ابن قسيط السكسكي المصري يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
ومنهم موسى بن نصير الذي ينسب الفتح إليه يروي عن تميم الداري.

## فصل في فضل المغرب

وقد جاء في فضل المغرب غير حديث فمن ذلك ما حدثني الفقيه الإمام المتقن المتفنن أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل الشيباني سماعاً عليه بمكة في شهر رمضان من سنة 620 قال: حدثني المؤيد بن عبد الله الطوسي قراءة عليه بنيسابور قال: حدثنا الإمام كمال الدين محمد بن احمد بن صاعد القراوي قراءة عليه قال: حدثنا ابن عبد الغافر الفارسي حدثنا محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودي حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري قال: حدثنا يحيى بن يحيى عن هشام بن بشر الواسطي عن داود بن أبي هند بن أبي عثمان النهدي عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة".
ومن فضل الأندلس أنه لم يذكر قط أحد على منابرها من السلف إلا بخير.
وما زالت الولاة بالأندلس تليها من قبل بني أمية أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر فلما اضطرب أمرهم في سنة 136 بقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك اشتغلوا عن مراعاة أقاصي البلاد ووقع الاضطراب بإفريقية والاختلاف بالأندلس أيضاً بين القبائل ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشي يجمع الكلمة إلى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطب ففعلوا وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري فسكنت به الأمور واتفقت عليه القلوب واتصلت إمارته إلى سنة 138 بعد ذهاب دولة بني أمية بست سنين.

## ذكر خبردخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس

وفي هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأندلس الملقب بالداخل فقامت معه اليمانية وحارب يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري الوالي على الأندلس المذكور آنفاً فهزمه واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة 172.
وكان مولده بالشام سنة 113 أمه أم ولد اسمها راح ويكنى أبا المطرف دخل الأندلس في ذي القعدة واستولى على قرطبة دار ملكها في التاريخ المذكور وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بني العباس فلم يزل مستتراً ينتقل في بلاد المغرب حتى دخل الأندلس ودخل حين دخلها طريداً وحيداً لا أهل له ولا مال فلم يزل يصرف حيله ويسمر بهيبته - والقدر مع ذلك يوافقه - إلى أن احتوى على ملكها وملك بعض بلاد العدوة وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر عنده قال: ذاك صقر قريش.
وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم وعلي سيرة جميلة من العدل ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي وله أدب وشعر ومما أنشد وقاله يتشوق إلى معاهدة بالشام قوله: أيها الراكب الميمم أرضي=أقر من بعضي السلام لبعضي إن جسمي كما علمت بأرض=وفؤادي ومالكيه بأرض قدر البين بيننا فافترقنا=وطوى البين عن جفوني غمضي قد قضى الله بالفراق علينا=فعسى

باجتماعنا سوف يقضي! وله شعر كثير أبرع من هذا أورده المؤرخون في كتبهم وكانت مدة ولايته منذ استولى على قرطبة - دار الملك - إلى أن توفي اثنتين وثلاثين سنة.

## ولاية الأمير هشام بن عبد الرحمن

ثم ولي بعد عبد الرحمن ابنه هشام يكنى أبا الوليد وسنه حينئذ خمس وثلاثون سنة واتصلت ولايته سبعة أعوام إلى أن مات في صفر سنة 180 وكان حسن السيرة متحرياً للعدل يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق بالصدقات الكثيرة وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوي البيوتات من الضعفاء لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات في التاريخ المذكور أمه أم ولد اسمها حوراء.

## ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضي

ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة يكنى أبا العاص أمه أم ولد اسمها زخرف وكان طاغياً مسرفاً وله آثار سوء قبيحة وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم وكان الربض محلة متصلة بقصره فاتهمهم في بعض أمره ففعل بهم ذلك فسمى الحكم الربضي لذلك.
وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع - أعني صوامع المساجد - وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا +يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه المصر على كبره المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك." وما نحا هذا النحو فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم وكان أشد الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم إلى أن كان من أمرهم ما كان.
وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الأندلس أنه لما تسور عليه القصر وأحس بالشر قال: لأخص غلمانه اذهب إلى فلانة - إحدى كرائمه - وقل لها تعطيك قارورة الغالية فأبطأ الغلام وتلكأ فأعاد ذلك عليه فقال: يا مولاي هذا وقت الغالية؟ فقال: له ويلك يا ابن الفاعلة! بم يعرف رأسي إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مضمخاً بالغالية؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر وعامة الحشم والجند يشغلونهم إلى أن دهمتهم الخيل من ورائهم فانهزموا وقتلوا قتلاً قبيحاً وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة أول المغرب فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا فرجع بعضهم إلى الأندلس واختار بعضهم سكنى صقلية وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية.
ومن أعجب ما حكى أبو مروان بن حيان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الوقعة قال:

كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضاً رجل من الفقهاء اسمه طالوت كان جليل القدر في الفقهاء رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه وكان قوياً في دينه فلما أوقع الحكم بأهل الربض كما ذكرنا وأمر بتغريب من بقي منهم كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحوال فاستخفى في دار

ن قلت: في عيني فثم مدامعي=أو قلت: في قلبي فثم غليلي لكن جعلت له المسامع موضعاً=وحجبتها عن عذل كل عذول هذا ما بقي في حفظي منها وكان أبو عمر هذا من مقدمي شعراء الحكم المستنصر وكان مختصاً بأبي الحسن المصحفي منضوياً إليه وهو الذي حمله على هجو محمد بن أبي عامر فلما أفضى الأمر إلى محمد قبض على المصحفي واستصفى أمواله ووضعه في المطبق فلم يزل به حتى مات جوعاً وهزالاً وأما ما كان من أبي عمر الشاعر فإنه أوسعه عقوبة ونكالاً وأمر بتغريبه فشفع له عنده في أن يتركه ببلده فأذن في ذلك غير أنه خرج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة أمر مناديه أن ينادي بذلك في جميع جهات قرطبة فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة في آخر أيام أبي عامر.
وكان الحكم المستنصر مواصلاً لغزو الروم ومن خالفه من المحاربين فاتصلت ولايته إلى أن مات في صفرسنة 366 فكانت مدة ولايته منذ بويع له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهراً وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤيد لم يعش له ولد غيره.

## ولاية هشام المؤيد بن الحكم

المستنصر وتغلب المنصور بن أبي عامر:

ثم ولي بعده ابنه هشام بن الحكم يكنى أبا الوليد أمه أم ولد اسمها صبح وسنه إذ ولي عشرة أعوام وأشهر فلم يزل متغيباً لا يظهر ولا ينفذ له أمر وكان الذي تغلب على أمره أولا وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني.
وكان أصل ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء من قرية من أعمالها تسمى طرش على نهر يسمى وادي آروا إلا أنه كان شريف البيت قديم التعين ورد شاباً إلى قرطبة فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميز في ذلك وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالي الأمور وتزيد في ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك وله في ذلك أخبار عجيبة قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي طرفاً في كتابه المترجم بالأماني الصادقة فمن جملتها قال: الحميدي: حدثني أبو محمد علي بن أحمد بن حزم قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن إسحاق التميمي

أصلاً خلا بيتين هما مما ارتجل في بعض مجالسه وهما: أجد الكلام إذا نطقت فإنما=عقل الفتى في لفظه المسموع كالمرء يختبر الإناء بصوته=فيرى الصحيح به من المصدوع

## وزارة المظفر بن أبي عامر

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد بن أبي عامر هذا ابنه أبو مروان عبد الملك ابن أبي عامر وتلقب بالمظفر فجرى في الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سنن أبيه وكانت أيامه أعياداً في الخصب والأمان دامت سبع سنين إلى أن مات وثارت الفتن بعده.

## وزارة الناصر بن أبي عامر

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر فخلط وتسمى ولي العهد ولم يزل مضطرب الأمور مدة أربعة أشهر إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة 399 فخلع هشاماً المؤيد وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن أبي عامر فقتل وصلب.
وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار المتقدم ذكره لما قام تلقب بالمهدي وبقي الأمر كذلك إلى أن قتل محمد بن هشام بن عبد الجبار ورد هشام المؤيد إلى الأمر وذلك يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة 400؛ وبقي كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة 403 فدخل البربر مع سليمان قرطبة وأخلوها من أهلها حاشا المدينة وبعض الربض الشرقي وقتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر - وكان كما ذكرنا - في طول دولته متغلباً عليه لا ينفذ له أمر وغلب عليه في هذا الحصار - أعني حصار البربر - واحد من العبيد بعد محمد بن أبي عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر.

تفصيل ما سبق إجماله:

## ولاية محمد بن هشام

بن عبد الجبار المهدي

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على هشام بن الحكم في جمادى الآخرة كما تقدم فخلعه وتسمى بالمهدي وكان يكنى أبا الوليد أمه أم ولد اسمها مزنة وكان له

ولد اسمه عبيد الله وكان مولد المهدي في سنة 366 وقتل وله من العمر أربع وثلاثون سنة ولم يزل والياً إلى أن قام عليه - يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة 399 - هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر فحاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحة اليوم الثاني فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدي فانهزم البربر وأسر هشام ابن سليمان فأتى به إلى المهدي فضرب عنقه.

## بدء الفتنة

واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر - وهو ابن أخي هشام القائم المذكور - فنهض بالبربر إلى الثغر واستجاش بالنصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة فبرز إليه جماعة أهل قرطبة فلم تكن إلا ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش وهي الوقعة المشهورة ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلق كثير واستتر محمد بن هشام المهدي أياماً ثم لحق بطليطلة وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر إلى موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى دار البقر فانهزم سليمان والبربر واستولى المهدي على قرطبة ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر وكانوا قد عاثوا بالجزيرة فالتقوا بموضع يعرف بوادي أره فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدي وانصرف إلى قرطبة فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبي فقتلوه وردوا هشاماً المؤيد - كما تقدم قبل -.
فكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قتل سبعة عشر شهراً من جملتها الستة الأشهر التي كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر وانقرض عقبه فلا عقب له.

## ولاية سليمان بن الحكم

بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المتلقب بالمستعين بالله:

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة 399 وتلقب بالمستعين بالله ثم دخل قرطبة كما تقدم في ربيع الآخر سنة 400 فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين بالله ثم خرج عنها في شوال من السنة بعينها فلم يزل يجول بعساكر البربر معه في بلاد الأندلس يفسد وينهب ويقفر المدائن والقرى بالسيف والغارة لا يبقي البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة إلى أن دخل قرطبة في صدر شوال سنة 403.

## ولاية بني حمود

وكان من جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب يسميان القاسم

وعلياً ابني حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فجعلهما قائدين على المغاربة ثم ولى أحدهما سبتة وطنجة وهو علي الأصغر منهما وولى القاسم الجزيرة الخضراء وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً وقد ذكر فيما قبل.
وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة فملكوا مدناً عظيمة وتحصنوا فيها فراسلهم علي بن حمود المذكور وقد حدث له طمع في ولاية الأندلس فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصراً بقرطبة كتب إليه يوليه عهده فاستجابوا له وبايعوه فزحف من سبتة إلى مالقة وفيها عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولى الحكم المستنصر فاستجاب له وأدخله مالقة فتملكها علي بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة فخرج إليه محمد بن سليمان في عساكر البربر فانهزم محمد بن سليمان ودخل قرطبة علي بن حمود وقتل سليمان بن الحكم صبراً: ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة 407 وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضاً في ذلك اليوم وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة.
وكانت مدة ولاية سليمان - منذ دخل قرطبة إلى أن قتل - ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم وكانت مدته منذ قام مع البربر إلى أن قتل سبعة أعوام وثلاثة أشهر وأياماً.

كأن المنايا والزمان تعلما=تحيله في القطع بين ذوي الود! وجد بخطه أنه ولد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة 384 توفي - رحمه الله - في سلخ شعبان من سنة 456.
وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزيحة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم.

## ولاية ابن حمود الناصر

ثم ولي علي بن حمود على ما تقدم وتسمى بالخلافة وتلقب بالناصر ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمرتضى وزحفوا به إلى غرناطة وهي من البلاد التي تغلب عليها البربر ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وحدة نفسه وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة وخفي أمره.
وبقي علي بن حمود بقرطبة مستمر الأمر عامين غير شهرين إلى أن قتله صقالبة له في الحمام سنة 408 وكان له من الولد يحيى وإدريس.

## ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حمود وكان أسن منه بعشرة أعوام وكان وادعاً أمن الناس معه وكان يذكر عنه أنه تشيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً وكذلك سائر من ولي منهم بالأندلس.
فبقي القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة 412 فقام عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال وصار بأشبيلية وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال وتسمى بالخلافة وتلقب بالمعتلي فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة فدخلها سنة 413 وهرب يحيى بن علي إلى مالقة فبقي القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره.
وغلب ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي كانت معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره وغلب ابن أخيه الثاني إدريس بن علي صاحب سبتة على طنجة وهي كانت عدة القاسم يلجأ اليها إن رأى ما يخافه بالأندلس.
وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة وغلقوا أبوابها دونه وحاصرهم نيفاً وخمسين يوماً وأقام الجمعة في مسجد خارج قرطبة يعرف بمسجد ابن أبي عثمان أثره باق إلى اليوم ثم إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها في شعبان سنة 414 ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه.
وقصد القاسم أشبيلية - وبها كان ابناه محمد والحسن - فلما عرف أهل أشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر وضبطوا البلد وقدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد أحدهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي ومحمد بن يريم الألهاني ومحمد بن الحسن الزبيدي ومكثوا كذلك أياماً مشتركين في سياسة البلد وتدبيره ثم استبد القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير وصار الآخران من جملة الناس.
ولحق القاسم بشريش واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار في قبضة ابن أخيه وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر.
وبقي القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس فقتل القاسم خنقا سنة

وحمل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك.
فكانت ولاية القاسم منذ تسمى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند أبني أخيه يحيى وإدريس إلى أن قتل - كما ذكرنا - في أول سنة 431 ومات وله ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن أمهما أميرة بنت الحسن بن قتون بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

## ولاية يحيى بن علي المعتلي

اختلف في كنيته فقيل أبو القاسم وقيل أبو محمد وأمه لبونة بنت محمد ابن الحسن بن القاسم المعروف بقنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس ابن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان الحسن ابن قنون من كبار ملوك الحسنيين وشجعانهم ومردتهم وطغاتهم المشهورين فتسمى يحيى بالخلافة بقرطبة سنة 413 كما ذكرنا ثم هرب عنها إلى مالقة سنة 414 كما وصفنا ثم سعي قوم من المفسدين في رد دعوته إلى قرطبة في سنة 416 فتم لهم الأمل إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطاف اليفرني فبقي الأمر كذلك إلى سنة 417 ثم قطعت طاعته جماعة البربر وصرفوا عاملهم وبايعوا المعتلي الأموي أخا المرتضى وبقي المعتلي هذا يردد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت كلمة البربر على الاستسلام لأبي القاسم وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن وعظم أمره بقرمونة فصار محاصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها فخرج يوماً وهو سكران إلى خيل ظهرت من أشبيلية بقرب قرمونة فلقيها وقد كمنوا له فلم يكن بأسرع من أن قتلوه وذلك يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة 427 وكان له من الولد الحسن وإدريس لأمي ولد.

رد الأمر إلى بني أمية:

## ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبي القاسم كما ذكرنا اتفق رأي أهل قرطبة على رد الأمر إلى بني أمية فاختاروا منهم ثلاثة وهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر أخو المهدي المذكور آنفاً وسليمان بن المرتضى المذكور آنفاً ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان القائم على المهدي بن الناصر.

## ولاية محمد بن عبد الرحمن

المستكفي بالله:

ولي محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر لأن مولده في سنة 366 وكنيته أبو عبد الرحمن أمه أم ولد اسمها حوراء وكان أبوه قد قتله ابن أبي عامر في أول دولة هشام المؤيد لسعيه في القيام وطلبه للأمر.
وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفي بالله وكانت ولايته ستة أشهر وايام وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير وزر له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد هو كان المدبر لأمره والمدير لدولته فقل في دولة يديرها حائك!.
ولم يزل كذلك إلى أن خلع وقتل وزيره المذكور في داره دخل عليه عوام أهل قرطبة نهاراً فتولوه بالحديد إلى أن برد وخلعوا المستكفي بالله وأخرجوه عن قرطبة بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب ثم نفوه كما

ذكرنا فلحق بالثغور ورجع الأمر إلى يحيى بن علي الفاطمي.
وانتهى المستكفي المذكور من الثغر إلى قرية تعرف ب "شمنت" بالقرب من مدينة سالم ومعه أحد قواده وهو عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر فكره هذا القائد التمادي معه فاستدعى المستكفي غداءه فعمد القائد إلى دجاجة فدهنها له بعصارة نبت يقال له البيش - وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة - فلما أكلها المستكفي مات مكانه فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه فقبره هناك ولا عقب له.
ثم أقام يحيى بن علي الفاطمي في الولاية نافذ الأمر إلا أنه لم يدخل قرطبة وإنما كان مقيماً بقرمونة كما قد قدمنا إلى أن قتل في التاريخ الذي تقدم ذكره.

## ولاية هشام المعتد بالله

ولما انقطعت دعوة يحيى بن علي الفاطمي عن قرطبة في التاريخ الذي ذكرنا أجمع رأي أهل قرطبة على رد الأمر إلى بني أمية وكان عميدهم في ذلك والذي تولى معظمه وسعى في تمامه الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبدة وقد كان ذهب كل من ينافس في الرياسة ويخب في الفتنة بقرطبة فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الأمور وداخلهم في هذا الأمر فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وهو أخو المرتضى المذكور آنفاً.
وكان هشام هذا مقيماً بحصن يدعى ألبنت - من الثغور - عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلب بها فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة 418 وتلقب بالمعتد بالله.
وكان مولده في سنة 364 وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام وسنه يوم بويع له أربع وخمسون سنة أمه أم ولد اسمها عاتب.
فبقي ينتقل في الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد إلى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبة الملك فسار إليها ودخلها في الثامن من ذي الحجة سنة فلم يقم بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند فخلع وجرت أمور يطول شرحها من جملتها إخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه والنساء حاسرات عن أوجههن حافية أقدامهن إلى أن أدخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا فاقاموا هنالك أياماً يتعطف عليهم بالطعام والشراب إلى أن أخرجوا عن قرطبة.
ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقال بقرطبة فلم يزل يجول في الثغور إلى أن لحق بابن هود المتغلب على مدينة لاردة وسرقسطة وأفراغة وطرطوشة وما والى تلك الجهات فأقام عنده هشام إلى أن مات في سنة 427 ولا عقب له فهشام هذا آخر ملوك بني أمية بالأندلس.
نسبه: هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن

معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم.
وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعدوة إلى لآن.
فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بني أمية بالأندلس على شرط التلخيص.

ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال الدعوة الأموية عنها ومن ملكها من الملوك إلى وقتنا هذا وهو

سنة 621:
## مآل قرطبة بعد انتهاء الدولة الأموية

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ويكنى أبا الحزم وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هشام المعتد.
وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية وهو موصوف بالدهاء وبعد الغور وحصافة العقل وحسن التدبير ولم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك كان يتصاون عنها ويظهر النزاهة والتدين والعفاف فلما خلا له الجو وأصفر الفناء وأقفر النادي من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها واضطلع بحمايتها.
ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً جرياً على ما قدمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق إليه وذلك أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ورتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره إليها وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجل رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم وصير أهل الأسواق جنداً له وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه.
وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتغلبين وكان آمناً وادعاً وقرطبة في أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف.
واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة 435 فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهراً.

ثم ولى ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشيء من ذلك إلى أن مات.أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة 443.
فغلب عليها بعد أمور جرت الأمير الملقب بالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة

فدبرها مدة يسيرة إلى أن مات.
وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.
فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك.
وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لإشبيلية.

فصل:

## رجع الحديث إلى بني حمود

ومطمع بني عباد في التغلب على قرطبة:

وأما أحوال الحسنيين فإنه لما قتل يحيى بن علي كما ذكرنا لسبع خلون من المحرم سنة 427 رجع أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة ونجا الخادم الصقلبي - وهما مدبرا دولة الحسنيين - فأتيا مالقة وهي دار مملكتهم فخاطبا أخاه إدريس بن علي - وكان بسبتة - وكان يملك معها طنجة واستدعياه فأتى مالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبتة ولم يبايعا واحداً من ابني يحيى وهما إدريس وحسن لصغرهما فأجابهما إلى ذلك ونهض نجا مع حسن هذا إلى سبتة وطنجة وكان حسن أصغر ابني يحيى ولكنه أسدهما رأياً.
وتلقب إدريس بالمتأيد فبقي كذلك إلى سنة 30 أو 431 فتحركت فتنة وحدث للقاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد صاحب أشبيلية أمل في التغلب على تلك البلاد فأخرج ابنه إسماعيل في عسكر مع من أجابه من قبائل البربر ونهض إلى قرمونة فحاصرها ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة وحصن آخر يدعى استجة فأخذهما وكانا بيد محمد بن عبد الله رجل من قواد البربر من بني برزال فاستصرخ محمد بن عبد الله إدريس بن علي الحسني وقبائل صنهاجة فأمد صاحب صنهاجة بنفسه وأمده إدريس بعسكر يقوده ابن بقنة أحمد بن موسى

## أحوال الأندلس بعد بني أمية

بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها على الإجمال لا على التفصيل:

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية فإن أهلها تفرقوا فرقاً وتغلب في كل جهة منها متغلب وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه وتقسموا ألقاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية وفي ذلك يقول: أبو علي الحسن بن رشيق: مما يزهدني في أرض أندلس=سماع مقتدر فيها ومعتضد ألقاب مملكة في غير موضعها=كالهر يحكي

انتفاخاً صولة الأسد! وأنا ذاكر إن شاء الله في هذا الفصل أسماءهم والجهات التي تغلبوا عليها على نحو ما شرطت من الإجمال إذ لكل منهم أخبار وسير ووقائع لو بسطت القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص إلى حيز الإسهاب و أيضاً فالذي منعني عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم قلة ما صحبني من الكتب واختلال معظم محفوظاتي.

(وَيَحمِلُ عَرشَ رَبِّكَ فَوقَهُم يَومَئِذٍ ثَمانِيَةٌ) والقول بجواز حذف التاء في مثل ذلك يحت

## ملوك الطوائف

فأولهم في الربع الشرقي رجل اسمه سليمان بن هود تلقب بالمؤتمن وتلقب ابنه بالمقتدر وتلقب ابنه بالمستعين.
كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية طرطوشة وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وأفراغة ولا ردة وقلعة أيوب هذه اليوم كلها بأيدي الإفرنج يملكها صاحب برشنونة - - لعنه الله - - وهي البلاد التي تسمى أرغن حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنوني مما يلي بلاد إفرنسة.
ويجاور بني هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان قديم الرياسة هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم لشرف بيته ولا أعلم له لقباً كان يملك بلنسية وأعمالها.
وكان يلي الثغر رجل آخر يقال له أبو مروان بن رزين كان يملك إلى أول أعمال طليطلة.
وكان الذي يملك طليطلة وأعمالها الأمير أبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذي النون.
وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة واشرفهم بيتا وأحقهم بالتقدم تلقب بالمأمون كان أبوه إسماعيل هو الذي تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول الفتنة.
ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا إلى أن أخرجه عنها الأدفنش - - لعنه الله - - واستولى عليها النصارى في شهور سنة 478 فهي قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا.
وكان يملك قرطبة وأعمالها إلى أول الثغر جهور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة إسماعيل بن ذي النون والد أبي الحسن المذكور آنفاً.
وكان يملك أشبيلية وأعمالها القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمداً والحسن على ما سيأتي الإيماء إليه إن شاء الله عز وجل.
وكان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة وما والى ذلك البربر بنو برزال الصنهاجيون على ما قدمناه.

وتغلب على المرية وأعمالها زهير العامري الخادم ثم ملكها بعده خيران العامري أيضاً الخادم

وأنشدني - رحمه الله - وقال: احفظ عني: إني نظرت إلى المرآة إذ جليت=فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا رأيت فيها شيخاً لست أعرفه=وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى هذا ما أنشدني لنفسه بلفظه - رحمه الله - وله شعر كثير أجاد في أكثره وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدم فيها وطريقته هي الغاية المقصوى التي يجري كل من بعده إليها هو آخر المجيدين في صناعتها ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك.

## رجع القول إلى ملوك الطوائف

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الأندلس فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر فلم يذكر خليفة أموي ولا هاشمي بقطر من أقطار الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة أشبيلية وأعمالها حسبما اقتضته الحيلة واضطر اليد التدبير ثم انقطع ذلك حسبما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا.
ولم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تختل ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم إلى أن جمع الله الكلمة ورأب الصدع ونظم الشمل وحسم الخلاف وأعز الدين وأعلى كلمة الإسلام وقطع طمع العدو بيمن نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني - رحمه الله - ثم استمر على ذلك ابنه علي وأعاد إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها فكانت الأندلس في أيامهما حرماً آمناً وأول دعاء دعي للخلافة العباسية أبقاها الله على منابر الأندلس في أيامهما ولم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة في بلاد السوس على ما يأتي بيانه إن شاء الله عز وجل.

فصل

## ملك بني عباد بإشبيلية

ولاية المعتضد بالله العبادي

ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور أشبيلية وأعمالها ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد فجرى على سنن أبيه في إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط

العدل مدة يسيرة ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء وواتته مع هذا المقادير فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً فمنهم من قتله صبراً ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولاً وفقراً إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر وتلقب بالمعتضد بالله.
وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر بالله وكان الذي حمله على تدبير هذه الحيلة ما رآه من اضطراب أهل أشبيلية وخاف قيام العامة عليه لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بقرطبة كالمستظهر والمستكفي والمعتد فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه فادعى ما ادعاه من ذلك وذكر أن هشاماً عنده بقصره وشهد له خواص من حشمه وأنه في صورة الحاجب له المنفذ لأموره وأمر بالدعاء له على المنابر فاستمر ذلك من أمره سنين إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته في سنة 455 واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيما زعم وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس.
ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع اقطار الأندلس وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جللها برؤس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور وكان يقول: في مثل هذا البستان فليتنزه.
وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس كان قد استوى في مخافته ومهابته القريب والبعيد لا سيما منذ قتل ابنه واكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً وكان سبب ذلك أن ولده المذكور - وكان اسمه إسماعيل - كان يبلغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته وتمنى وفاته فيتغاضى المعتضد ويتغافل تغافل الوالد إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذي فيه أبوه في عبدان وأراذل معه ورام الفتك بأبيه فانتبه البوابون والحرس فهرب أصحاب إسماعيل واخذ بعضهم فأقر وأخبر بالكائنة على وجهها

## ولية المرابطين في مراكش

وفي إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة قبيلتان عظيمتان من البربر رحبة مراكش فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد وكانت إذ نزلوها غيظة لا عمران بها وإنما سميت بعبد أسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش فاستوطنها البربر كما ذكرنا وقدموا عليهم رجلاً منهم اسمه تاشفين بن يوسف.
وكان المعتضد في كل وقت يستطلع أخبار العدوة هل نزل البربر رحبة مراكش وذلك لما كان يراه في ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعو ولده ومخرجوه من ملكه فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر إليهم مصعداً ومصوباً ويقول يا ليت شعري من تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم؟ فقال: له أبو القاسم من بينهم جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن ينزله بك! فكانت دعوة وافقت المقدار.

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتي المرابطين رحبة مراكش في صدر سنة وانفصالهم عنها جملة واحدة في وسط سنة 540 فكانت مدة إقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة نحواً من ست وسبعين سنة.
ثم توفي المعتضد بالله في شهر رجب من سنة 464 واختلف في سبب وفاته فقيل إن ملك الروم سمه في ثياب أرسل بها إليه وقيل إنه مات حتف أنفه فالله أعلم.

## ولاية أبي القاسم بن عباد

المعتمد على الله:

ثم قام بالامر من بعده ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد وزاد إلى المعتمد على الله الظافر بحول الله وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس ذكاء نفس وغزارة أدب وكان شعره كأنه الحلل المنشرة واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية مالاً يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة إلى ما يناسب هذه الاخلاق الشريفة وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها.
ولي أمر أشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة فكانت مدة ولايته إلى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها كانت له - رحمه الله - همة في تخليد الثناء وإبقاء الحم

## عبد الجليل بن وهبون الشاعر

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مرسية اسمه عبد الجليل بن وهبون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل إلى دقيق المعاني أنشد يوماً بين يدي المعتمد - رحمه الله - بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد وهما: قل الوفاء فما تلقاه في أحد=ولا يمر لمخلوق على بال وصار عندهم عنقاء مغربة=أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال فأعجب المعتمد بهما وقال: لمن هذان البيتان فقالوا هما لعبد الجليل بن وهبون أحد خدم مولانا! فقال: المعتمد عند ذلك هذا والله اللؤم البحت رجل من خدامنا والمنقطعين إلينا يقول: أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدوثة وأمر له بألف مثقال فلما دخل عليه يتشكر له قال: له يا أبا محمد هل عاد الخبر عياناً؟ قال: أي والله يا مولاي ودعا له بطول البقاء فلما هم بالانصراف قال: له يا عبد الجليل الآن حدث بها لا عنها يعني ألف مثقال.

وله - رحمه الله - شعر كثير برز في أكثره وأجاد ما أراد وسيمر منه في أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز عند ذوي التمييز فمما اختاره من شعره قوله: علل فؤادك قد أبل عليل=واغنم حياتك فالبقاء قليل لو أن عمرك أنفس عام كامل=ما كان حقاً أن يقال طويل أكذا يقود بك الأسى نحو الردى=والعود عود والشمول شمول؟ لا يستبيك الهم نفسك عنوة=والكأس سيف في يديك صقيل بالعقل تزدحم الهموم على الحشا=فالعقل عندي أن تزول عقول! ومن شعره السيار لا بل الطيار قوله في مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه أهداه له صاحب طليطلة اسم المملوك سيف: سموه سيفاً وفي عينيه سيفان=هذا لقتلي مسلول وهذان اما كفت قتلة بالسيف واحدة=حتى أتيح من الأجفان ثنتان أسرته وثناني غنج مقلته=أسيره فكلانا آسر عاني

## أبو الوليد بن زيدون

فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيرا وإذا مدح أزرى بزهير وإذا فخر أناف على امرئ القيس فمن جملة مقاطعه التي تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله: بيني وبينك مالو شئت لم يضع=سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع يا بائعاً حظه مني ولو بذلت=لي الحياة بحظي منه لم أبع يكفيك أنك إن حملت قلبي ما=لا تستطيع قلوب الناس يستطع ته أحتمل واستطل أصبر وعز أهن=وول أقبل وقل أسمع ومر أطع! وهو القائل - رحمه الله - يخاطب بني جهور وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد لأن أصله من مدينة قرطبة فنالته منهم محنة فخرج عن قرطبة إلى أشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده فكان يبلغه عن بني جهور ما يسوءه في نفسه وقرابته بقرطبة فقال: يخاطبهم: بني جهور أحرقتمو بجفائكم=فؤادي فما بال المدائح تعبق؟! تعدونني كالعنبر الورد إنما=تفوح لكم أنفاسه حين يحرق ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافاً قصيدته التي قالها يتشوق ابنة المهدي ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية: أضحى التنائي بديلاً من تدانينا=وناب عن طيب لقيانا تجافينا بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا=شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا نكاد حين تناجيكم ضمائرنا=يقضي علينا الأسى لولا تأسينا حالت لفقدكم أيامنا فغدت=سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا إذ جانب العيش طلق من تألفنا=ومورد اللهو صاف من تصافينا وإذ حصرنا غصون الأنس دانية=قطوفها فجنينا منه ما شينا ليسق عهدكم عهد السرور فما=كنتم لأرواحنا إلا رياحينا من مبلغ ملبسينا بانتزاحهم=حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا

## أبو بكر بن عمار

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ذو النفس العصامية والآداب الأهتمية كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي وربما كان

أحلى منزعاً منه في كثير من شعره ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ولم ألف أحداً ممن أدركته سني من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدماً له مؤثراً لشعره وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيهات!.
فمن قصائده المشهورة التي أجاد فبها ما أراد قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد - لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه - وهي: علي وإلا ما بكاء الغمائم=وفي وإلا ما نياح الحمائم؟ وعني أثار الرعد صرخة طالب=لثأر وهز البرق صفحة صارم وما لبست زهر النجوم حدادها=لغيري ولا قامت له في مآتم وفي هذه القصيدة يقول: يمدح المعتضد بالله: إذا ركبوا فانظره أول طاعن=وإن نزلوا فارصده آخر طاعم أبى أن يراه الله إلا مقلداً=حميلة سيف أو حمالة غارم ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله: جاه الهوى فاستشعروه عاره=ونعيمه فاستعذبوه أواره! لا تطلبوا في الحب عزا إنما=عبدانه في حكمه أحراره قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم=يا حبذاه وحبذا إضراره قلبي هو اختار السقام لجسمه=زياً فخلوه وما يختاره عيرتموني بالنحول وإنما=شرف المهند أن ترق شفاره وشمتم لفراق من آلفته=ولربما حجب الهلال سراره أحسبتم السلوان هب نسيمه=أو أن ذاك النوم عاد غراره إن كان أعيا القلب من حرب الجوى=خذلته من دمعي إذن أبصاره من قد قلبي إذ تثنى قده=وأقام عذري إذ أطل عذاره أم من طوى الصبح المنير نقابه=وأحاط بالليل البهيم خماره

كل الإنكار فقال: المعتمد للرسول قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في إحداهما القصيدة فما فعلت بالأخرى فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال: المعتمد هلم المسودة فلم يجد جواباً فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمار فلما رآه علم أنه قاتله فجعل ابن عمار يزحف - وقيوده تثقله - حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده ولم يزل يضربه به حتى برد.
ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بقي على خاطري.

رجع الحديث عن بني عباد

ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته و الأيام تساعده والدهر على ما يريده يؤازره ويعاضده إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله - أعني من المتغلبين - ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية وهي التي تعرف بتدمير بينها وبين أشبيلية نحو من اثنتي عشرة مرحلة وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة.
وكان تغلبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة 471 ثم رجع إلى أشبيلية واستخلف عليها ولده عباداً ولقبه بالمأمون وهو أكبر ولده ولد له في حياة أبيه المعتضد وسماه عباداً فكان المعتضد يضمه إليه ويقول يا

عباد يا ليت شعري من المقتول بقرطبة أنا أو أنت؟ فكان المقتول بها عباد هذا في حياة أبيه المعتمد وفي السنة التي زال عنهم الملك فيها.

## ول أمر المرابطين بالأندلس

ولما كانت سنة 479 جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل وسأله عن حاجته فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه وقال: له أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي!.
فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه في طلبته ولم يدر أن تدميره في تدبيره وسل سيفاً يحسبه له ولم يدر أنه عليه فكان كما قال أبو فراس: إذا كان غير الله للمرء عدة=أتته الرزايا من وجوه الفوائد كما جرت الحنفاء حتف حذيفة=وكان يراها عدة للشدائد فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجل فعبر البحر بعسكر ضخم - وكان عبوره من مدينة سبتة - فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس.
ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقي الأندلس وسأله المعتمد دخول أشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعثاء السفر ثم يقصد قصده فأبى عليه وقال: إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه.
وكان الأدفنش - - لعنه الله - - محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر.
وتوجه يوسف المذكور إلى شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر والإصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق - قد تقدم ذكره في أخبار ابن عمار - فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابن رشيق عن

مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك مالاً جعله له ويوليه في جهة أشبيلية ولاية فأجابه ابن رشيق إلى ذلك وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها.
ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم بن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية.

## وقعة الزلاقة

ثم إن يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره فقال: للمعتمد على الله هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ويتشوق إلى مراكش ويصغر قدر الأندلس ويقول في أكثر أوقاته كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف! وهو في ذلك كله يسر حسواً في ارتغاء! فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس.
وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زهاء عشرين ألفاً والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم.
وكان الأدفنش - - لعنه الله - - قد استنفر الصغير والكبير ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه وجاء يجر الشوك والشجر وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيب عليهم فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم!.
ولما ترائ الجمعان من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة فقال: للمعتمد ما كنت أظن هذا الخنزير - لعنه الله - يبلغ هذا الحد!.
وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون.
وكان ترائيهم يوم الخميس وهو الثاني عشر من شهر رمضان فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان فكان من قول الأدفنش - لعنه الله -: الجمعة لكم والسبت لليهود نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند ما يحده

## بين المعتصم بن صمادح والمعتمد بن عباد

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده واشتد تقريب أمير المسلمين له أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة وكان المعتصم يعيبه في مجالسه وينال منه ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته.
وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير توجه إلى شرقي الأندلس يتطوف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته فلما دانى أول بلاد المعتصم خرج إليه في وجوه أصحابه وتلقاه لقاء نبيلاً وعزم عليه ليدخلن بلاده فأبى المعتمد ذلك

ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد فكان ذلك واصطلحا في الظاهر واحتفل المعتصم في إكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس ما ظنه مكمداً للمعتمد مثيراً لغمه وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه وعصمه بفضله منه ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد إلى بلاده وبأثر ذلك عبر إلى مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين - كما ذكرنا - فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف في خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب وكان يقول: لأصحابه هذان رجلاً هذه الجزيرة! يعني المعتصم والمعتمد وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إياه ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين ووصفه إياه عنده بكل فضل ولم يكن المعصتم بعيداً من أكثر ما وصفه به.
ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وإفساد ما بينهما - حسن له ذلك سوء رأيه ودنس سريرته وضعف بصره بعواقب الأمور وليقضي الله أمراً كان مفعولاً وليبلغ القدر ميقاته وإذا أراد الله تمام أمر هيأ له أسباباً - فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ولم يدر أنه ساقط في البئر التي حفر وقتيل بالسلاح الذي شهر فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين أن جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه وفرط كبره وأنه لا يرى أحدا كفؤا له وزعم أنه قال: له في بعض الأيام - وقد قال: له المعتصم طالت

إقامة هذا الرجل بالجزيرة يعني أمير المسلمين - لو عوجت له إصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه وكأنك تخاف غائلته وأي شيء هذا المسكين وأصحابه إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش وغلاء من السعر جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجاراً فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد.
وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولأصحابه أجلاً وحد له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عليها وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمد وتسكيناً لخاطره فلما انقضت تلك المدة أو قاربت عبر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وغر صدره وتغيرت نفسه.
وما النفس إلا نطفة في قرارة=إذا لم تكدر كان صفواً غديرها هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها أنه غير عليه!.

## نكبة بني عباد

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد فبلغني أنه قال: لبعض ثقاته من وجوه أصحابه كنت أظن أني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها؟ فاتفق رأيه

ورأي أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ففعلوا وكتبوا إلى المعتمد بذلك فأذن لهم بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً.
وقد كانت قلوب أهل الأندلس - كما ذكرنا - قد أشربت حب يوسف وأصحابه فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم وأمر عليهم رجلاً من قرابته يسمى بلجين وأسّر إليه ما أراده فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة فقال: له أين تأمرني بالكون؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو

## أبو بكر الداني

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية وهي على ساحل البحر الرومي كان يملكها مجاهد العامري وابنه علي الموفق - على ما تقدم -.
ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز وكانا شاعرين إلا أن عبد العزيز منهما لم يرض الشعر صناعة ولا اتخذه مكسباً وإنما كان من جملة التجار وأما أبو بكر فرضيه بضاعةً وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المهيع جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها وجودة المعاني ولطافتها وكان منقطعاً إلى المعتمد معدوداً في جملة شعرائه لم يفد عليه إلا آخر مدته فلهذا قل شعره الذي يمدحه به.
وكان - رحمه الله - مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه قليل المعرفة بعلله لم يجد الخوض في علومه وإنما كان يعتمد في أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته يدل على ذلك قوله في قصيدة له سيرد ما أختاره منها في موضعه: من كان ينفق من سواد كتابه=فأنا الذي من نور قلبي أنفق ولما خلع المعتمد على الله وأخرج من أشبيلية لم يزل أبو بكر هذا يتقلب في البلاد إلى أن لحق بجزيرة ميرقة وبها مبشر العامري المتلقب بالناصر فحظي عنده وعلت حاله معه وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء فمنها قصيدة ركب فيها طريقةً لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر وذلك أنه جعلها من أولها إلى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح وهذا لم أسمع به لأحد وأول القصيدة: وضحت وقد فضحت ضياء النير=فكأنما التحفت ببشر مبشر وتبسمت عن جوهر فحسبته=ما قلدته محامدي من جوهر وتكلمت فكأن طيب حديثها=متعت منه بطيب مسك أذفر هزت بنغمة لفظها نفسي كما=هزت بذكراه أعالي المنبر أذنبت واستغفرتها فجرت على=عاداته في المذنب المستغفر جادت علي بوصلها فكأنه=جدوى يديه على المقل المقتر ولثمت فاها فاعتقدت بأنني=من كفه سوغت لثم الخنصر سمحت بتعنيقي فقلت صنيعة=سمحت علاه بها فلم تتعذر

لولا ذبول الورد قلت بأنه=خد الحبيب عليه صبغ حيائه هيهات أين الورد من خد الذي=لا يستحيل عليك عهد وفائه الورد ليس صفاته كصفاته=والطير ليس غناؤها كغنائه يتنفس الإصباح والريحان من=حركات معطفه وحسن روائه ويجول في الأرواح روح ما سرت=رياه من تلقائه بلقائه صرف الهوى جسمي شبيه خياله=من فرط خفته وفرط خفائه ومن أحسن ما على خاطري له بيتان يصف بها خالاً وهما:
بدا على خده خال يزينه=فزادني شغفاً فيه إلى شغف كأن حبة قلبي عند رؤيته=طارت فقال لها في الخد منه قفي! ولابن اللبانة هذا إحسان كثير منعني من استقصائه خوف الإطالة و أيضاً فلأن هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب وإنما يأتي منه فيه ما تدعو إليه ضرورة سياق الحديث.

## رجع الحديث إلى أخبار المعتمد

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله.
وبلغني أن رجلاً رأى في منامه قبل الكائنة العظمى على بني عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة كأن رجلاً أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشدهم رافعاً صوته: رب ركب قد أناخوا عيسهم=في ذرى مجدهم حين بسق سكت الدهر زماناً عنهم=ثم أبكاهم دماً حين نطق! فما كان إلا أشهر يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال: وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات أن آثر حظياته وأكرم بناته ألجئت إلى أن تستدعي غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها وتصلح به ما ظهر من اختلالها فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها كان بين يديه يزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه إلا ذلك اليوم واتفق أن السيدة الكبرى أم بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر بمراكش قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه فكتب إليه المعتمد راغباً في علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه فكتب إليه الوزير مؤدياً حقه ومجيباً له عن رسالته ومسعفاً له في طلبته واتفق أن دعا له في أثناء الرسالة بطول البقاء فقال المعتمد في ذلك:

طوقت من نائبات الدهر مخنقة=ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما! وعاد كونك في دكان قارعة=من بعد ما كنت في قصر حكى إرما صرفت في آلة الصواع أنملة=لم تدر إلا الندي والسيف والقلما يد عهدتك للتقبيل تبسطها=فتستقل الثريا أن تكون فما يا صائغاً كانت العليا تصاغ له=حلياً وكان عليه الحلي منتظما للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى=هول رأيناك فيه تنفخ الفحما وددت إذ نظرت عيني إليك به=لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى ما حطك الدهر لما حط من شرف=ولا تحيف من أخلاقك الكرما لح في العلا كوكباً إن لم تلح قمراً=وقم بها ربوة إن لم تقم علما واصبر فربتما أحمدت عاقبةً=من يلزم الصبر يحمد غب ما لزما والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت=ولو وفى لك مع المزن لانسجما بكى حديثك حتى الدر حين غدا=يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما وروضة الحسن من أزهارها عريت=حزناً عليك لأن أشبهتها شيما بعد النعيم ذوى الريحان حين رأى=ريحانك الغض يذوي بعد ما نعما لم يرحم الدهر فضلاً أنت حامله=من ليس يرحم ذاك الفضل لا رحما

شقيقك الصبح إن أضحى بشارقة=وأنت في ظلمة فالصبح قد ظلما

فصل رجع الحديث عن

## دولة المرابطين بالأندلس

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على الله مع ما تعلق بها وإن كانت مخرجة عن الغرض لندل بها على ما قدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك و أيضاً فليتصل نسق الأخبار عن المملكة - أعني مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين - ولوجه ثالث وهو أن ما آلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة والضعة بعد الرفاهة والقبض بعد البسط من جملة العبر التي أرتناها الأيام والمواعظ التي تصغر الدنيا في عيون أولي الأفهام.
ثم إن يوسف بن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد إذ كان هو كبش

أعيان الكتاب في دولة المرابطين

واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار فممن كتب لأمير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ما وصفته به ليس على خاطري منها شيء.

## وزارة ابن عبدون

ثم كتب له أو لابنه بعد أبي بكر هذا الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قد تقدم من نعته ما أغنانا عن تكراره ههنا وكان يكتب قبل من كتب له منهما للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو الذي دخل على المعتمد على الله أشبيلية فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين باستدعاء منه له.
من رسائله عنه إلى أمير المسلمين رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شنترين - أعادها الله - وكان سير هذا هو الذي تولى فتحها فكتب عنه أبو محمد كتاباً: أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين أعلامه نافذة في السبعة الأقاليم أقلامه من داخل مدينة شنترين وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين.
والحمد لله رب العالمين حمداً يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه لا يرد وجهه نكوص ولا يحد كنهه تخصيص ولا يحزره بقبض ولا ببسط

مثال ولا تخمين ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين ولا يسعه أمد يحويه ولا يقطعه أبد يستوفيه ولا يجمعه عدد يحصيه إذا سبقت هواديه لحقت تواليه.
وعلى محمد عبده وأمين وحيه الصادع بأمره ونهيه نظام الأمة وإمام الأئمة سر آدم من بنيه وفخر العالم ومن فيه صلاة تامة نقضيها وتحية عامة نؤديها ترفض ارفضاض الزهر من كمامه وتنفض انفضاض المسك من ختامه فلقد صدع بتوحيده وجمع على وعده ووعيده وأوضح الحق وجلاه ونصح الخلق وهداه إلا من حقت عليه كلمة العذاب وسبقت له الشقوة في

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف - كما ذكرنا - في إيثار الغزو وقمع ملوك الروم والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس إلى أن توفي في شهور سنة 493.

## ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين

وقام بأمره من بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمي أصحابه المرابطين فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس.
ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم وفي ذلك يقول: أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بأبن البني من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس.

أهل الرياء لبستمو ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك وقبضتمو الأموال بابن القاسم

وركبتمو شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم

وإنما عرض أبو جعفر هذا في هذه الأبيات بالقاضي أبي عبد الله محمد بن حمدين قاضي قرطبة وهو كان المقصود بهذه الأبيات ثم هجاه بعد هذا صريحاً بأبيات أولها:

أدجال هذا أوان الخروج ويا شمس لوحي من المغرب

يريد ابن حمدين أن يعتفي وجدواه أنأى من الكوكب

إذا سئل العرف حك أسته ليثبت دعواه في تغلب

في أمثال لهذه الأبيات وكان القاضي أبو عبد الله بن حمدين ينتسب إلى تغلب بن وائل.
ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع - أعني فروع مذهب مالك - فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى

نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه لهذه الأقوال حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك.

## أعيان الكتاب في عهد أبي الحسن

ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبي القاسم بن الجد المعروف بالأحدب - أحد رجال البلاغة - وأبي بكر محمد ابن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً في جماعة يكثر ذكرهم.
وكان من أنبههم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال وحق له ذلك إذ هو آخر الكتاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى.
فمما أختار له - رحمه الله - فصول من رسالةٍ كتب بها مراجعاً لبعض إخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعي فيها منه شيئاً من كلامه وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة.
وصل من السيد المسترق والمالك المستحق - وصل الله إنعامه لديه كما قصر الفضل عليه - كتابه البليغ - واستدراجه المريغ فلولا أن يصلد زند اقتداحه ويرقد طرف افتتاحه وتنقبض يد انبساطه وتغبن صفقة اغتباطه للزمت معه مركز قدري وصنت سريرة صدري لكنه بنفثات سحره يسمع الصم ويستنزل العصم ويقتاد الصعب فيصحب ويستدر الصخور فتحلب.

## اختلال أحوال المرابطين

واختلت حال أمير المسلمين - رحمه الله - بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه!.
واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يرفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول لا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس.

## محمد بن تومرت وبداية أمر الموحدين

ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدي وبدء أمر الموحدين بالمغرب والأندلس

ولما كانت سنة 515 قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر.
ومحمد هذا رجل من أهل سوس مولده بها بضيعة منها تعرف بإيجلي أن وارغن - وهو من قبيلة تسمى هرغة - من قوم يعرفون بأيسرغينن وهم الشرفاء بلسان المصامدة ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه وكان قد رحل إلى المشرق في شهور سنة 501 في طلب العلم وانتهى إلى بغداد ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده فالله أعلم.
وحكي أنه ذكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال: الغزالي حين بلغه ذلك ليذهبن عن قليل مكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوى طمعه.
وكر راجعاً إلى الأسكندرية فأقام بها يختلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه وجرت له

## بن تومرت في حضرة ابن تاشفين

وكتب بخبره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فلما دخلها أحضر بين يديه وجمع

له الفقهاء للمناظرة فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول: حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك في جميع العلوم إلا أنه كان لا يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان وكانت لديه فنون من العلم رأيت له كتاباً سماه قراظة الذهب في ذكر لئام العرب ضمنه لئام العرب في الجاهلية والإسلام وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب فجاء الكتاب لا نظير له في فنه رأيته في خزانة بني عبد المؤمن.
ولمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطليموس في الأحكام وكتاب المجسطي في علم الهيئة وعليه حواش بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبي.
ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت استشعر حدة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمى كلامه أحد إلا مال إليه وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير! فتوقف أمير المسلمين في قتله وأبى ذلك على دينه - وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة - يعد في قوام الليل وصوام النهار إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ووزراً على ما تقدم.
فلما يئس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت أشار عليه بسجنه حتى يموت فقال: أمير المسلمين علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء!.
فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سوس فنزل بموضع منها يعرف بتينمل.

ومعاضدة الفراء وابن السكيت وغيرهما للكسائي وكل منهم إمام وتوجيهها: أنه لما ثبدء دعوة الموحدين

من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير من غير أن يظهر إمرة ولا طلبة ملك وألف لهم عقيدة بلسانهم وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأشربت قلوبهم محبته وأجسامهم طاعته فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها وأقاموا على ذلك مدة وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وجعل يذكر المهدي ويشوق إليه وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ادعى ذلك لنفسه وقال: أنا محمد بن عبد الله ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي المعصوم وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله.

ثم صنف لهم تصانيف في العلم منها كتاب سماه أعز ما يطلب وعقائد في أصول الدين وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها وكان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء.

خمسا إذ لا يمكن إرادة الليالي في الصوم وصار اليوم كأنه مندرج تحت

## طبقات الموحدين

وصنف أصحابه طبقات فجعل منهم العشرة وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته - وهم المسمون بالجماعة - وجعل منهم الخمسين - وهم الطبقة الثانية - وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة بل هم من قبائل شتى وكان يسميهم المؤمنين ويقول لهم ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: +لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله" وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقع أكثرها وكان يقول: لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة خليفة.
فزادت فتنة القوم به وأظهروا له شدة الطاعة.
وقد نظم هذا الذي وصفناه من قول ابن تومرت في تخليد هذا الأمر رجل من أهل الجزائر - مدينة من أعمال بجاية - وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو بتينمل فقام على قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين وأنشد قصيدة أولها:

سلام على قبر الإمام الممجد سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علوم الدين بعد مماتها ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا بقسط وعدل في الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ويملك عرباً من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى وأنه علاماته خمس تبين لمهتدي
زمان وإسم والمكان ونسبة وفعل له في عصمة وتأيد
ويلبث سبعاً أو فتسعاً يعيشها كذا جاء في نص من النقل مسند
فقد عاش تسعاً مثل قول نبينا فذلكم المهدي بالله يهتدي

وتتبعه للنصر طائفة الهدى فأكرم بهم إخوان ذي الصدق أحمد

هي الثلة المذكور في الذكر أمرها وطائفة المهدي بالحق تهتدي

ويقدمها المنصور والناصر الذي له النصر حزب إذ يروح ويغتدي[1]

المصامدة - وشربت تلك الفرس من مياهها صهلت صهلة اصطكت منها الجبال فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك فكتب إليه أنها بلاد شر وقسوة فعجل الخروج منها!.
فهذه حال بلاد القوم وأما خفه سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب.

## الحرب بين المرابطين والموحدين

ولما كانت سنة 517 جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تينمل مع من انضاف إليهم من أهل سوس وقال: لهم اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى أماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي المعصوم فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم مالهم وعليهم ما عليكم وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم.
وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي وقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين.
وخرجوا قاصدين مدينة مراكش فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة بجيش ضخم من سراة لمتونة أميرهم الزبير بن علي بن يوسف ابن تاشفين فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت فردوا عليهم أسوأ رد وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ويذكره الله في سفك الدماء وإثاره الفتنة فلم يردع ذلك عبد المؤمن بل زاده طمعاً في المرابطين وحقق عنده ضعفهم فالتقت الفئتان فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه فلما جاء الخبر لابن تومرت قال: أليس قد نجا عبد المؤمن قالوا نعم قال: لم يفقد أحد.
ولما رجع القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ويقرر عندهم أن قتلاءهم شهداء لأنهم ذابون عن دين الله مظهرون للسنة فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم وحرصاً على لقاء عدوهم ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش ويقطعون عنها مواد المعايش وموصول المرافق ويقتلون ويسبون ولا يبقون على أحد ممن قدروا عليه وكثر الداخلون في طاعتهم والمنحاشون إليهم وابن تومرت في ذلك كله يكثر التزهد والتقلل ويظهر

[1] قلت لاحول ولا قوة الا بالله

التشبه بالصالحين والتشدد في إقامة الحدود جارياً في ذلك على السنة الأولى.
أخبرني من رآه - ممن أثق إليه - يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل متشبها في ذلك بالصحابة.
ولقد أخبرني بعض من شهده وقد أتى برجل سكران فأمر بحدة فقال: رجل من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها! فأعرض عنه ثم أعاد عليه الحديث فأعرض عنه فلما كان في الثالثة قال: له أرأيت لو قال: لنا شربتها في دار يوسف بن سليمان ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت ثم كشف على الأمر فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيماً إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يخبر.
ولم يزل كذلك وأحواله صالحة وأصحابه ظاهرون وأحوال المرابطين المذكورين تختل وانتقاض دولتهم يتزيد إلى أن توفي ابن تومرت المذكور في شهور سنة 524 بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه.

## ذكر ولاية عبد المؤمن

ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة واتفقت على تقديمه الجماعة وكان الذين سعوا في تقديمه وهيئوا ذلك له ثلاثة وهم من أهل الجماعة عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر أزناج وعمر ابن ومزال الذي كان اسمه قبل هذا فصكة فسماه ابن تومرت عمر يعرفونه بعمر إينتي وعبد الله بن سليمان من أهل تينمل من قبيلة يقال لها مسكالة ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقي الموحدين.

## وصية ابن تومرت

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة وأهل خمسين وهم - كما ذكرنا - من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا اسم المصامدة فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم وذكر من حد عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر وتصميمه على الحق في أشباه لهذه الفصول ثم قال: فانقرضت هذه العصابة - نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها - وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران والعالم متجاهلاً مداهناً فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم في أشباه لهذا القول إلى هاجراً: ثم إن الله - سبحانه وله الحمد - من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده وقيض لكم من ألفاكم ضلالاً لا تهتدون وعمياً لا تبصرون لا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً قد فشت فيكم البدع

واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لساني عن النصق بها وأربأ بلفظي عن ذكرها فهداكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى وجمعكم بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم وما ربك بظلام للعبيد فجددوا لله - سبحانه خالص نياتكم وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يداً واحدة على عدوكم فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فخطفتكم الخاصة وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه واختبرنا سريرته وعلانيته فرأيناه في ذلك كله ثبتاً في دينه متبصراً في أمره وإني لأرجو ألا يخلف الظن فيه وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه فإن

بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده.
فبايع القوم عبد المؤمن ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً فهذا سبب إمرة عبد المؤمن - رحمه الله - ثم توفي ابن تومرت بعد عهده بيسير واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن.

## فصل في حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله

وعبد المؤمن هذا هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي أمه حرة كومية أيضاً من قوم يقال لها بنو مجبر مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا وقيل إنه كان يقول: إذا ذكر كومية لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر وبهذا استجاز الخطباء أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تومرت قسيمه رضي الله عنه في النسب الكريم.
كان مولده في آخر سنة 487 في أيام يوسف بن تاشفين وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة ومدة ولايته من حين استوسق له الأمر بموت علي بن يوسف أمير المسلمين في سنة 37 على التحقيق إحدى وعشرين سنة إلى أن توفي في التاريخ المذكور.
وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة شديد سواد الشعر معتدل القامة وضيء الوجه جهوري الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق وكان محبباً إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه بديهة وبلغني أن ابن تومرت كان ينشد كلما رآه: تكاملت فيك أخلاق

خصصت بها=فكلنا بك مسرور ومغتبط فالسن ضاحكة والكف مانحة=والصدر منشرح والوجه منبسط

وذكر الواحدي وغيره من المفسرين أن سقوط التاء من قوله تعالى: (يَتَرَبَّصنَ بِأَنف

## أولاده

وكان له من الولد ستة عشر ذكراً وهم محمد وهو أكبر ولده وولي عهده وهو الذي خلع وعلي وعمر ويوسف وعثمان وسليمان ويحيى وإسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى وموسى وإبراهيم ويعقوب.

## وزراؤه

وزر له في أول الأمر أبو حفص عمر أزناج إلى ان استقر الأمر واستقل عبد المؤمن فأجلى أبا حفص هذا عن الوزارة وربأ بقدره عنها إذ كان عندهم فوق ذلك واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية فجمع بين الوزارة والكتابة فهو معدود في الكتاب والوزراء فلم يزل عبد المؤمن بجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلاً من نبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالمي وسيأتي ذكره في كتابه واستمرت وزارة أبي جعفر إلى أن قتله عبد المؤمن في شهور سنة 553 واستصفى أمواله ثم وزر له عبد السلام الكومي وكان يدعى المقرب لشدة تقريب عبد المؤمن إياه فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن من قتله خنقاً في شهور سنة 557 ثم وزر له ابنه عمر إلى أن توفي عبد المؤمن.

## كتابه

أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور في الوزراء كان قبل اتصاله بعبد المؤرن وفي الدولة اللمتونية يكتب لعلي بن يوسف في آخر أيامه وكتب عن تاشفين بن علي بن يوسف فلما انقرض أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه بالجند وكان محسناً للرمي وكان في الجند الذين خرجوا إلى سوس لقتال ثائر قام هناك كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر إينتي المتقدم الذكر في أهل الجماعة فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقتل هو وانفضت تلك الجموع طلب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة إلى الموحدين الذين بمراكش فدل على أبي جعفر هذا ونبه على مكانه فاستدعاه وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال أجاد في أكثرها ما شاء منعني من رسمها في هذا الموضع ما فيها من الطول فلما بلغت الرسالة عبد المؤمن استحسنها واستدعى أبا جعفر هذا واستكتبه وزاده إلى الكتابة الوزارة لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله فلم يزل وزيره كما ذكرنا إلى أن قتله في التاريخ الذي ذكر وكان سبب قتله - فيما بلغني - أنه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية وأخوها يحيى فارس المرابطين

المشهور عندهم يعرف أيضاً بيحيى بن الصحراوية فحظي يحيى هذا عند الموحدين وقودوه على من وحد من لمتونة ولم يزل وجيهاً عندهم مكرماً لديهم - وكان خليقاً بذلك - إلى أن نقلت عنه إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها أحنقته عليه فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه وربما هم بالقبض على يحيى هذا فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين من نصح أميره وتحذير صهره فقال: لأمرأته أخت يحيى المذكور قولي لأخيك يتحفظ وإذا دعوناه غدا فليعتل ويظهر المرض وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميرقة فليفعل فأخبرته أخته بذلك فتمارض وأظهر أن ألماً به فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته فأسر إلى بعضهم - ممن كان يثق به - ما بلغه عن الوزير تخرج ذلك الرجل الذي أسر إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الأكبرفي قتل أبي جعفر المذكور وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه فكان في سجنه إلى أن مات!.
ثم كتب له بعد أبي جعفر هذا أبو القاسم عبد الرحمن القالمي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم وكتب له معه أبو محمد عياش ابن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة

## قضاته

أبو محمد عبد الله بن جبل من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقي لم يزل قاضياً له إلى أن توفي عبد المؤمن وصدراً من خلافة أبي يعقوب.

## رجع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم محباً لهم محسناً إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم وقسم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الحضر هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه.
وكان عبد المؤمن في نفسه سري الهمة نزيه النفس شديد الملوكية كأنه كان ورثها كابراً عن كابر لا يرضى إلا بمعالي الأمور.
أخبرني الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر الوزير عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر قال: دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره وتفتحت أزهاره وتجاوبت على أغصانها أطياره وتكامل من كل جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان فسلمت وجلست وجعلت أنظر يمنة وشأمة متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال: لي يا أبا جعفر أراك كثير النظر إلى هذا البستان! قلت: يطيل الله بقاء أمير المؤمنين والله إن هذا لمنظر حسن! فقال: يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا؟ قلت: نعم فسكت عني فلما كان بعد

يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر آخذي أسلحتهم وجلس في مكان مطل وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة إثر كتيبة لا تمر كتيبة إلا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة فلما رأى ذلك التفت إلي وقال: يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا ثمارك وأشجارك.
ولم يزل عبد المؤمن - بعد وفاة ابن تومرت - يطوي الممالك مملكة مملكة ويدوخ البلاد إلى أن ذلت له البلاد وأطاعته العباد.

## نهاية المرابطين وآخر من ولي الأمر منهم

وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التي يملكها المرابطون مدينة مراكش دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حتف أنفه في شهور سنة 537 وكان قد عهد في حياته إلى ابنه تاشفين فعاقته الفتنة عن تمام أمره ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشيء من الأمور.
وخرج تاشفين بعد وفاة أبيه قاصداً تلمسان فلم يتفق له من أهلها ما يريد فقصد مدينة وهران وهي على ثلاث مراحل من تلمسان فحاصره الموحدون بها فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء عليه سلاحه فاقتحم البحر حتى هلك ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه فالله أعلم بصحة ذلك.
فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل كما ذكرنا بمدينة وهران ثلاثة أعوام إلا شهرين وكان قتله سنة 540 وكان طول هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال تنبو به البلاد وتتنكر له الرعية فلم تزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذكر.
وبعد دخول عبد المؤمن - رحمه الله - مراكش طلب قبر أمير المسلمين وبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره في أيام حياته وتلك عادة الله الحسنى مع الصالحين المصلحين.
وانقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه فلم يذكروا على منبر من منابرها إلى الآن خلا أعوام يسيرة بأفريقية كان قد ملكها يحيى بن غانية الثائر من جزيرة ميرقة على ما سيأتي بيانه.
وكانت مدة المرابطين - من حين نزولهم رحبة مراكش إلى أن انقرض ملكهم جملة واحدة بموت أمير المسلمين وابنه - نحواً من ست وسبعين سنة.

والظاهر أن مراده بما نقله الفراء وابن السكيت وغيرهما عن العرب - الحذف

## تغلب عبد المؤمن على بجاية وقلعة بني حماد

ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون على ما قدمنا وأطاعه أهلها جمع جموعاً عظيمة وخرج من مراكش يقصد مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي - وكان يملك بجاية وأعمالها - إلى

موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتمونة فقصده عبد المؤمن كما ذكرنا في شهور سنة 540 فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى يحيى بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم هرب في البحر حتى أتى مدينة بونة وهي أول حد بلاد إفريقية ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينة المغرب فأرسل إليه عبد المؤمن - رحمه الله - بالجيوش فاستنزل وأتى به عبد المؤمن هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى في نفسه وأهله.
ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد وهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمنع فيها نشأ ملكهم ومنها انبعث أمرهم.
وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجداه المنصور والمنتصر وجدهم الأكبر حماد من شيعة بني عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بلادهم أعني صنهاجة قامت دعوة بني عبيد وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمراً ودولتهم قائمة وأمرهم نافذاً لا ينازعهم أحد شيئاً مما في أيديهم إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته أبو محمد عبد المؤمن بن علي في التاريخ الذي تقدم!.
ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعاً إلى مراكش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والأموال الوافرة وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاهاً ضخماً وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها.
بلغني من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوماً فذكروا تعذر الصرف فقال: يحيى أما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة وعبيدي في كل يوم يشكون إلي ما يلقون

من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال: لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا إن شاء الله عز وجل!.
وأقام عبد المؤمن - رحمه الله - بمراكش مرتباً للأمور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور وإعداد سلاح واستنزال مستعص وتأمين سبل وإحسان إلى رعية وما هذا سبيله.

فصل:

## أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين

فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي

بن يوسف اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة.
ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين اخرجوا من كان عندهم من الولاة واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية فأما بلاد أفراغة فاستولى عليها ملك ارغن - لعنه الله - وملك مع ذلك سرقسطة أعادها الله للمسلمين وكثيراً من أعمال تلك الجهات.
واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم بلغني عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجاب الدعوة ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس إذا رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض! هذه مائة فارس! فحمى الله تلك

لغني ذلك عنه من طرق صحاح ثم لم يستقم له شيء مما أراد واختلف عليه أصحابه وكان قيامه بحصن مارتلة - وقد تقدم اسم هذا الحصن في أخبار الدولة العبادية - فأسلمه - كما ذكرنا - أصحابه واختلفوا عليه ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد فعبروا به إلى العدوة فأتوا به عبد المؤمن - رحمه الله - فقال: له بلغني أنك ادعيت الهداية فكان من جوابه أن قال: أليس الفجر فجران كاذب وصادق فأنا كنت الفجر الكاذب فضحك عبد المؤمن وعفا عنه ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس ولابن قسي هذا أخبار قبيحة مضمونها الجراءة على الله سبحانه والتهاون بأمر الولاية منعني من ذكرها صرف العناية إلى ما هو أهم منها.

## عبور الموحدين إلى الأندلس

ولما انتشرت دعوة المصامدة كما ذكرنا بالمغرب الأقصى تشوف إليهم أعيان مغرب الأندلس فجعلوا يفدون في كل يوم عليهم ويتنافسون في الهجرة إليهم فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الأندلس كالجزيرة الخضراء ورندة ثم أشبيلية وقرطبة وأغرناطة وكان الذي فتح هذه البلاد الشيخ أبو حفص عمر إينتى المتقدم الذكر في أهل الجماعة واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس.
فلما رأى عبد المؤمن ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد جزيرة الأندلس فسار حتى نزل مدينة سبتة فعبر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتني به قصوراً عظيمة وبنى هناك مدينة هي باقية إلى اليوم ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة كأهل مالقة وأغرناطة ورندة

وقرطبة وأشبيلية وما والى هذه البلاد وانضم إليها وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم.

ومعاضدة الفراء وابن السكيت وغيرهما للكسائي وكل منهم إمام وتوجيههحمد بن حبوس الفاسي الشاعر

وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون فدخلوا فكان أول من أنشد أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير إلا أن محمد بن هانئ كان أجود منه طبعاً وأحلى مهيعاً فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد أولها: بلغ الزمان بهديكم ما أملا=وتعلمت أيامه أن تعدلا وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً=وجد الهداية صورة فتشكلا لم يبق على خاطري منها أكثر من هذين البيتين.
ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة وكان حظياً عنده نال في أيامه ثروة وكذلك في أيام ابنه أبي يعقوب وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت إليهم عنه حماقات فهرب إلى الأندلس ولم يزل بها مستخفياً ينتقل من بلد إلى بلد حتى انتقلت الدولة المرابطية.
قرأ علي ابنه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية فقال: دخلت مدينة شلب من بلاد الأندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئاً فسألت عمن يقصد إليه فيها فدلني بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سحاءة ودواة فأعطانيهما فكتبت أبياتاً أمتدحه بها وقصدت داره فإذا هو في الدهليز فسلمت عليه فرحب بي ورد علي أحست رد وتلقاني أحسن لقاء وقال: أحسبك غريباً! قلت: نعم فقال: لي من أي طبقات الناس أنت؟ فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء ثم أنشدته الأبيات التي قلت: فوقعت منه أحسن موقع فأدخلني إلى منزله وقدم إلي الطعام وجعل يحدثني فما رأيت أحسن محاضرة منه فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يدي ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية فدفعها إلي وقال: هذه لك! ثم دفع إلي صرة فيها أربعون مثقالاً وقال: هذه من عندي فتعجبت من كلامه وأشكل علي جداً وسألته من أين كانت هذه لي؟ فقال: لي سأحدثك إني أوقفت أرضاً من جملة مالي للشعراء غلتها في كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتني أحد لتوالي الفتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك وأما هذه فمن حر مالي يعني الأربعين دينار فدخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً.

## المراوني الشاعر ابن الطليق

وأنشده في ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المرواني كان شريفا من جهة

أمه: ما للعدا جنة أوقى من الهرب فقال عبد المؤمن رافعاً صوته إلى أين إلى أين؟ فقال الشاعر: أين المفر وخيل الله في الطلب؟! وأين يذهب من في رأس شاهقة=وقد رمته سماء الله بالشهب؟! حدث عن الروم في أقطار أندلس=والبحر قد ملأ العبرين بالعرب فلما أتم القصيدة قال: عبد المؤمن بمثل هذا تمدح الخلفاء فسمى نفسه خليفة كما ترى.
وجد هذا الشاعر هو الشريف الطليق طليق النعامة وإنما سمي بذلك لأنه كان محبوساً في مطبق أبي عامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور القائم بدعوة هشام المؤيد أقام في ذلك المحبس سنين فكتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنك العيش فرفعت إلى ابن أبي عامر فأخذها في جملة رقاع ودخل إلى داره فجاءت نعامة كانت هناك فجعل يلقي إليها الرقاع فتبتلع شيئاً ونلقي شيئاً فألقى إليها رفعة هذا الشريف في جملة الرقاع وهو لم يقرأها فأخذتها ثم دارت وألقتها في حجره فرمى بها إليها ثانية فدارت القصر كله ثم جاءت وألقتها في حجره فرمى بها إليها ثالثة وفعلت ذلك مراراً فتعجب من ذلك وقرأ الرقعة وأمر بإطلاقه فسمي بذلك طليق النعامة!.
وأنشد في ذلك اليوم رجل من أهل أشبيلية يعرف بابن سيد ويلقب باللص: غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل=وانظر إلى الجبل الراسي على جبل أنى أستقر به أنى استقل به=أنى رأى شخصه العالي فلم يزل فقال له عبد المؤمن لقد ثقلتنا يا رجل! فأمر به فاجلس وهذه القصيدة من خيار ما مدح به لولا أنه كدر صفوها بهذه الفاتحة.

خمسا إذ لا يمكن إرادة الليالي في الصوم وصار اليوم كأنه مندرج تحت اسم الليلة وجزء منها
فيدل عليه باسمها سواء أريدت حقيقة ذلك الاسم من الليلة واليوم تابع لها أم لم تر

## لرصافي الرفاء الشاعر

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي كان مستوطناً مدينة مالقة: لو جئت نار الهدى من جانب الطور=قبست ما شئت من علم ومن نور من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها=ليلاً لسار ولم تشبب لمقرور فيضية القدح من نور النبوة أو=نور الهداية تجلو ظلمة الزور ما زال يقضمها التقوى بموقدها=صوام هاجرة قوام ديجور حتجى أضاءت من الإيمان من قبس=قد كان تحت رماد الكفر مكفور نور طوى الله زند الكون منه على=سقط إلى زمن المهدي مذخور وآية كآيات الشمس بين يدي=غزو على الملك القيسي منذور يا دار دار أمير المؤمنين بسفح الط-ود طود الهدى بوركت في الدور ذات العمادين من عز ومملكة=على الأساسين من قدس وتطهير ما كان بانيك بآلواني الكرامة عن=قصر على مجمع البحرين مقصور مواطئ من نبي طالما وصلت=فيها الخطا بين تسبيح وتكبير حيث استقلت به نعلاه بوركتا=فطيبت كل موطوء ومعبور وحيث قامت قناة الدين ترفل في=لواء نصر على البرين منشور

في كف منشمر البردين ذي ورع=على التقى وصفاء النفس مفطور يلقاك في حال غيب من سريرته=بعالم القدس مشهود ومحضور تسنم الفلك من سخط المرار وقد=تؤدين يا خير أفلاك العلا سيري فسرن يحملن أمر الله من ملك=بالله مستنصر في الله منصور يومي له بسجود كل محركة=منها ويوليه حمداً كل تصرير لما تسابقن في بحر الزقاق به=تركن شطيه في شك وتحيير أهز من موجه أثناء مسرور؟=أم خاض من لجه أحشاء مذعور؟ كأنه سالك منه على وشل=في الأرض من مهج الأسياف مقطور من السيوف التي ذابت لسطوته=وقد رمى نار هيجاها بتسعير

## غزو الموحدين لإفريقية

ثم إن عبد الله تجهز في جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم وسار حتى نزل على مدينة تونس - وهي حاضرة إفريقية بعد القيروان وكرسي مملكتها ومقر تدبيرها وإياها يستوطن والي إفريقية لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى وقتنا هذا وهو سنة 621 - فحاصرها عبد الله المذكور وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها وكان الذي يملكها في ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الرومي صاحب صقلية - لعنه الله - وكان عامله عليها رجل من المسلمين اسمه عبد الله يعرف بابن خراسان لم يزل عاملاً عليها حتى أخرجه الموحدون في التاريخ الذي سيذكر فلما طال على ابن خراسان الحصار أجمع رأيه ورأي أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ففعلوا ذلك وخرجوا بخيل ضخمة فالتقوا هم واصحاب عبد الله فانهزم أصحاب عبد الله وقتل منهم خلق كثير ورجع عبد الله ببقية أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه يخبره بذلك.

## فتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين

فلما كان في آخر سنة 553 أخذ عبد المؤمن في الحركة إلى إفريقية فجمع جموعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جند المغرب وسار حتى نزل على مدينة تونس فافتتحها عنوة وفصل عنها إلى مهدية بني عبيد وفيها الروم أصحاب ابن الدوقة وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيري بن مناد الصنهاجي ملوك القيروان فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار وهي من معاقل المغرب المنيعة لأن بنيانها في غاية الإحكام والوثاقة - بلغني أن عرض حائط سورها ممشي ستة أفراس في صف واحد ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشيني كما هو بمقاتلته إلى داخل دار الصناعة لا يقدر أحد ممن في البر على منعه فبهذا قدر الروم على الصبر على الحصار لأن النجدة كانت تأتيهم من صقلية في كل وقت وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياماً وأصابتهم عليها شدة شديدة من غلاء السعر بلغني عن غير واحد أنهم اشتروا الباقلاء في العسكر سبع باقلات بدرهم

مؤمني وهو نصف درهم النصاب ثم افتتحها عبد المؤمن - رحمه الله - بعد أن أمن النصارى الذين بها على أنفسهم

على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم حيث مملكة صاحبهم ففعلوا ذلك ودخل عبد المؤمن وأصحابه المهدية فملكوها.
وبعث إلى قابس من افتتحها وفيها الروم أيضاً:

## امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق

ثم افتتح طرابلس المغرب وأرسل إلى بلاد الجريد - وهي توزر وقفصة ونفطة والحامة وما والى هذه البلاد فافتتحت كلها وأخرج الإفرنج منها وألحقهم ببلادهم كما تقدم فمحا الله به الكفر من إفريقية وقطع عنها طمع العدو فانتبه بها الدين بعد خموله وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله.
وتم لعبد المؤمن - رحمه الله - ملك إفريقية كلها منتظماً إلى مملكة المغرب فملك في حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ اختلت دولة بني أمية إلى وقته.

## ألوان من شكر النعمة

ثم كر عبد المؤمن راجعاً من إفريقية بعد ما استولى على بلادها ودان له أهلها فأخبرني بعض أشياخ الموحدين من ذوي التحصيل منهم والثقة أن عبد المؤمن مر في طريقه راجعاً من إفريقية ببجاية فدخل البلد متنزهاً فيه فمر بسويقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاطنت فوقف ووقفت معه وجوه دولته فسأل عن بياع بها سماه باسمه فأخبره أهل السويقة بوفاته فقال: هل خلف عقباً؟ قالوا نعم فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السويقة وأوقفها عليهم وأمر لهم بمال كثير ثم التفت إلى بعض خواصه وقال: له أتيت إلى هذا البياع ولي وللإمام - يعني ابن تومرت - ولجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم نطعم فيها وما معي إلا سكين الدواة فأخذت منه خبزاً وإداماً ثم وضعت عنده السكين رهناً على ذلك فأبى قبولها وقال: لي إني توسمت فيك الخير فمتى أعوزك شيء فهلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك! فحقه علي أكثر من هذا.
ونظر في هذا اليوم الذي ركب فيه مخترقاً بجاية إلى يحيى بن العزيز يمشي بين يديه راجلاً - وقد علاه الغبار - فدمعت عيناه واستدعاه فقال: له أتذكر يوماً خرجت إلى بعض منتزهاتك فأذكر أني جمعني وإياك هذا الباب فوطئت دابتك عقبي فلما نظرت إليك أمرت بعض عبيدك

## وفاء وفداء

ونازع عبد المؤمن الأمر قوم من قرابة ابن تومرت يعرفون بأيت ومغار - معناه بالعربية بنو ابن الشيخ - وانتهوا في ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلاً فيقتلوه وظنوا أن ذلك يخفى من أمرهم وأن عبد المؤمن إذا فقد ولم يعلم من قتله صار الأمر إليهم لأنهم أحق به إذ كانوا أهل الإمام وقرابته وأولى الناس به فأعلم بما أرادوه من ذلك رجل من أصحاب ابن تومرت - من خيارهم اسمه إسماعيل بن يحيى الهزرجي - فأتى عبد المؤمن فقال: له يا أمير المؤمنين لي إليك حاجة! قال: وما هي يا أبا إبراهيم؟ فجميع حوائجك عندنا مقضية! قال: أن تخرج عن هذا الخباء وتدعني أبيت فيه! - ولم يعلمه بمراد القوم - فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوهبه الخباء لأنه أعجبه فخرج عنه وتركه له فبات فيه إسماعيل المذكور فدخل عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى برد فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يصيبوا عبد المؤمن فروا بأنفسهم حتى أتوا مراكش وراموا القيام بها فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح فأبوا عليهم فضابوا عنق أحدهم وفر باقيهم وكادوا يغلبون على تلك القصور ثم إن الناس اجتمعوا عليهم من الجند وخاصة العبيد فقاتلوهم قتالاً شديداً من لدن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ثم إن العبيد غلبوهم على أمرهم ولم يزل الناس يتكاثرون عليهم إلى أن أخذوا قبضاً باليد فقيدوا وجعلوا في السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن - رحمه الله - إلى مراكش فقتلهم صبراً وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة بلغه أنهم قادحون في ملكه متربصون به.
ولما أصبح أبو إبراهيم إسماعيل المتقدم الذكر في الخباء مقتولاً على الحال التي ذكرنا أعظم ذلك عبد المؤمن ووجد عليه وجداً مفرطاً أخرجه عن حد التماسك إلى حيز الجزع فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه بنفسه ودفن.
ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحد ذكر اسمه يحيى نال يحيى هذا في أيام أبي يوسف يعقوب جاهاً متسعاً ورتبة عالية وكذلك في أيام أبي عبد الله محمد كانت أكثر أمورهم ترجع إليه لم يزل كذلك إلى أن مات في شهور سنة 602 وترك بنتاً واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن اسمها فاطمة لا عقب له منها طال عمرها تركتها بالحياة حين فصلت عن مراكش في شهور سنة 611.

## وفاة عبد المؤمن وعهده لولده

وكانت وفاته كما تقدم في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة 558 هجري.
وكان قد عهد في حياته إلى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس وكتب ببيعته إلى البلاد فأبى تمام هذا الأمر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال إنه مع هذا كان به ضرب من الجذام فالله أعلم.
ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافاً كثيراً فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه

السنة وكان الذي سعى في خلعه - مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك - أخواه يوسف وعمر.

## ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن يوسف وعمر وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوي الرأي والغناء منهم فأباها عمر منهما وتأخر عنها مختاراً وبايع لأخيه أبي يعقوب وسلم له الأمر حمله على ذلك فرط عقله وإيثار دينه وحب المصلحة للمسلمين لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية فبايع الناس أبا يعقوب واتفقت عليه الكلمة فلم يختلف عليه أحد من الناس من إخوته ولا غيرهم وذلك كله بحسن سعي أبي حفص عمر بن عبد المؤمن وشدة تلطفه وجودة رأيه فاستوسق لأبي يعقوب هذا أمره وتمت بيعته في التاريخ المذكور وكان الساعي فيها والقائم بها ومدبرها إلى أن تمت - كما ذكرنا - أخوه لأبيه وأمه أبو حفص المتقدم الذكر.
وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي أمه وأم أخيه أبي حفص امرأة حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير كان موسى هذا من شيوخ أهل تينمل وأعيانهم من ضيعة يقال لها أنسا وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينمل - برأي ابن تومرت - وخلف موسى هذا من الولد الذكور ثلاثة إبراهيم

وعلياً ومحمداً وبنات.

## صفة أبي يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة شديد سواد الشعر مستدير الوجه أفوه أعين إلى الطول ما هو في صوته جهارة رقيق حواشي اللسان حلو الألفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بأشبيلية والياً عليها في حياة أبيه ولقي بها رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن منهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه.
أخبرني من لقيته من ولده كأبي زكريا وأبي عبد الله وأبي إبراهيم إسحاق وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم أنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو وأحفظهم للغة العربية وكان شديد الملوكية بعيد الهمة سخياً جواداً استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال هذا مع إيثار للعلم شديد وتعطش إليه مفرط صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين - الشك مني إما البخاري أو مسلم وأغلب ظني أنه البخاري - حفظه في حياة أبيه بعد تعلم

القرآن هذا مع ذكر جمل من الفقه وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي.
أخبرني أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتحققين بعلمي الطب وأحكام النجوم قال: كنت في شبيبتي أستعير كتب هذه الصناعة - يعني صنعة الأحكام - من رجل كان عندنا بمدينة أشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحجاج يعرف بالمراني بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس فكان يعيرني إياها في غرائر أحمل غرارةً وأجيء بغرارة - من كثرتها عنده - فأخبرني في بعض الأيام أنه عدم تلك الكتب بجملتها فسألته عن السبب الموجب لذلك فأسر إلي إن خبرها أنهى إلى أمير المؤمنين فأرسل إل

## أبو بكر بن طفيل

وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة قرأ على جماعة من المحققين بعلم الفلسفة منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة وغيره ورأيت لأبي بكر هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة حي بن يقظان غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن ومن تصانيفه الإلهيات رسالة في النفس رأيتها بخطه - رحمه الله - وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي ونبذ ما سواه وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول: لو نفق عليهم علم الموسيقا لأنفقته عندهم وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته أنشدني ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة 606 من شعر أبيه رحمه الله: ألمت وقد نام المشيح وهوما=وأسرت إلى وادي العقيق من الحمى وجرت على ترب المحصب ذيلها=فما زال ذاك الترب نهباً مطمسا تناوله أيدي التجار لطيمة=ويحمله الداري أيان يزعما ولما رأت أن لا ظلام يجنها=وأن سراها فيه لن يتكتما نضت عذبات الريط عن حر وجهها=فأبدت محيا يدهش المتوسما فكان تجليها حجاب جمالها=كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما ولما التقينا بعد طول تهاجر=وقد كاد حبل الود أن يتصرما جلت عن ثناياها وأومض بارق=فلم أدر من شق الدجنة منهما وساعدني جفن الغمام على

البكا=فلم أدر دمعاً أينا كان أسجما فقالت وقد رق الحديث وأبصرت=قرائن أحوال أذعن المكتما نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهباً=يهون صعباً و يرخص مأثما